"السَّايفربَانك.. حُرّيّة الإنترنت ومُسْتَقبله"

■ نبيل علي صالح[1]

ملخّص

يَتمحوْرُ حديثُ هذا الكتاب ـ الَّذي نُراجعُهُ في مَقالتنا هذه ـ عن أهمِّيَّة التَّشفير لمُواجهة تَحوُّل شبكة الإنترنت من أَداة حُرَّة مَفتوحة لتدفُّق النُّظُم (والبرَمجيَّات والمَعلومات، والتَّداوُل المَعلوماتيِّ بمُختلف تَصنيفاته ومَواقعه)، إلى وَسيلة لَهيمنة الحُكومات وتَحكُّم الشَّركات الكبيرة، وما يَعنيه هذا من إعاقة حُرِّيَّة النَّشر، ووقوع اتِّصالات النَّاس وتَواصُلها الرَّقميِّ تحتَ السَّيطرة والمُراقبة والتَّلاعُب؛ وهذا ما قد يُشكِّلُ جداراً حقيقيًّا أمامَ حُريَّة المُجتمعات وديمقراطيَّاتها. يُحذِّرُ الكاتبُ (جوليان أسانج- Julian Assange) ـ صاحبُ موقع (ويكليكس) (WikiLeaks) الذّائع الصِّيت، ومُذيعُ الخَفايا والأسرار الَّتي أثارَت الضَّجيجَ، وصاحبُ الأفكار الَّتي هزَّت العالم ـ مع ثلاثة ناشطينَ حُقوقيِّينَ (ألمانيٍّ وأميركيٍّ وفرنسيٍّ) في حقل الاتِّصالات والمعرفة الإلكترونيَّة، من هذا التَّحوُّل الخَطير؛ حيثُ يَطرَحُ الحَلَّ عبرَ تَجميع نقاشات دارتْ عن شبكة الإنترنت وأهمِّيَّة حُريَّة التَّعبير، وطبيعة الحُكومة، وغيرها منَ الموضوعات المُثيرة للجَدل، مُقدِّمًا حُلولاً علميَّةً عمليَّةً، وذلك من خلال السَّعي إلى التَّشفير الرَّقميِّ باعتباره أحد أهمّ السُّبُل لمُواجهة ذلك التَّغوُّل الحُكوميِّ، الَّذي باتَ مُجرَّدَ قُرصان أو قاطع طريق إلكترونيٍّ يَستهدفُ حُريَّةَ تَدَفُّق المَعلومات؛ بما يَضمَنُ بِناءَ عالَم مثاليٍّ مُتحرِّر من قُيود الدَّولة والارتهان لسَيطرة شَركاتها الكُبرى، عبرَ إنشاء مَواقعَ جديدة لا يَستطيعُ المُراقبونَ الوُصولَ إليها، وإشادة مِنطقةٍ حُرَّةٍ لتَبادُل الأفكار والمَعلومات لا تُخضَعُ لأيِّ تأثيرٍ من سُلطةٍ.

الكلمات المفتاحية: الإنترنت، الرقابة الحكومية، الحرية، التشفير.

---

١ - كاتب وباحث، سوريا.

بطاقةُ الكتابِ

اسم الكتاب: "السَّايفربَانك.. حُرّيّة الانترنت ومُستقبله".
المؤلف: جُوليان أسانج وآخرون (جاكوب أبلبوم-أندي مولر-جيريمي زيمرمان).
ترجمة: سناء حرب.
إصدار: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر.
مكان النشر: لبنان/بيروت.
رقم الطبعة: الثانية.
تاريخ الطبعة: ٢٠١٥م.
عدد الصفحات: ١٣٥ صفحة.

أولًا: محتوياتُ الكتاب وفكرته الرئيسة

لا يُمكنُ اعتبارُ هذا الكتابِ تقليديًّا في فكرتِه وطريقةِ تأليفه، فهوَ عبارةٌ عن سلسلةِ حواراتٍ ومُقابلاتٍ ونقاشاتٍ جَرَتْ بين (جوليان أسانج) ـ صاحبِ ومُؤسِّسِ موقعِ (ويكيليكس) الشَّهيرِ ـ ومجموعةٍ من الخُبراءِ والنّاشطينَ المُخضرَمينَ في مجالِ التَّشفيرِ والإنترنت، يَتَحاورونَ ويتناقشونَ في موضوعِ التَّهديداتِ الّتي تتعرَّضُ لها حُريَّةُ شبكةِ الإنترنتِ وخُصوصيَّةُ النّاشرينَ عليها في مُختلفِ المَواقعِ والمَنصّاتِ الإلكترونيَّةِ الافتراضيَّةِ التَّواصليَّةِ والتَّفاعليَّةِ.

يَتألّفُ الكتابُ من مُقدِّمةٍ وعدَّةِ فَقراتٍ، هيَ عبارةٌ عن حلقةٍ نقاشيَّةٍ، جاءتْ تحتَ العناوينِ الآتيةِ:

ملاحظةٌ حولَ مُختلفِ المُحاولاتِ لاضطهادِ (ويكيليكس) والشَّخصيَّاتِ المُرتبطةِ به.

- زيادةُ الاتِّصالات مُقابلَ زيادة التَّحرِّيّات.
- عَسكرةُ الفضاء الإلكترونيِّ.
- مُكافحةُ الرَّقابة التَّامَّة بقوانين البَشر.
- تَجسُّسُ القطاع الخاصِّ.
- مُقاومةُ المُراقبة التَّامَّة بقوانين الفيزياء.
- الإنترنتُ والسِّياسةُ.
- الإنترنتُ وعِلمُ الاقتصاد.
- الرَّقابةُ.
- خُصوصيَّةٌ للضَّعيف، وشفافيَّةٌ للقويِّ.
- فئرانٌ في دار الأوبرا.

الفكرةُ الرَّئيسةُ للكتاب: إنَّ الخُصوصيَّةَ حَقٌّ أساس، والتَّشفيرُ هو الوسيلةُ لضَمانها في العصر الرَّقميِّ.

والكتابُ عبارةٌ عن حلقة نقاشيَّة أشرَفَ عليها (جوليان أسانج) الَّذي هو صحفيٌّ وناشطٌ ومُبرمِجٌ أستراليٌّ، أسَّسَ موقعَ (ويكيليكس) ورأَسَ تَحريرَهُ منذُ العام "٢٠٠٦م"؛ وهو حاصلٌ على عدد من الجوائز الصَّحافيَّة والحُقوقيَّة، منها جائزةٌ من مُنظَّمة العَفو الدَّوليَّة في العام "٢٠٠٩م"، كما كانَ مُرشَّحًا لنَيل جائزة نوبل للسَّلام عامَ "٢٠١٩م».

أصبَحَ موقعُ (ويكيليكس) مَعرُوفًا على المُستوى العالميِّ في العام "٢٠١٠م" عندما بَدأَ بنشر وثائقَ عَسكريَّة ودبلوماسيَّة سرِّيَّة عن الولاياتِ المتَّحدة الأميركيَّة بمُساعدة من شُركائه في وسائل الإعلام.

اعتقَلَتِ الشُّرطةُ البريطانيَّةُ (جوليان أسانج) داخلَ السِّفارة الإكوادوريَّة يومَ "١١ نيسان عام ٢٠١٩م" بعدما قامَ السَّفيرُ الإكوادوريُّ في بريطانيا بدعوته، وسُمِحَ لهُ بالدُّخول إلى المَبنى.

وفي الأوَّل من أيَّار "٢٠١٩م" حَكَمَ القَضاءُ البريطانيُّ بالسِّجن "٥٠ أسبوعًا" على مُؤسِّس (ويكيليكس) (جوليان أسانج) لانتهاكه شُروطَ الإفراج المُؤقَّت عنه.

وفي حُزيران "٢٠٢٤م" أُطلِقَ سَراحُ (أسانج) بموجب صفقة مع القَضاء الأميركيِّ بعدَ "١٩٠١" يومٍ قضاها في السِّجن، وَفقَ ما صرَّحَ به موقعُ (ويكيليكس)

عنوانُ الكتاب

أمَّـا بخصـوصِ عنـوانِ الكتـابِ، وهـو مصطلـحُ («السّـايفربانك» أو «السّـايبربانك» (Cypherpunk)(شـيفرة = Cypher / بنـك = punk مـن بنكِ المعلومـات) [1]، فهو مفهومٌ حديثٌ جرى نَحتُهُ منذَ بدايةِ تسعينياتِ القرنِ الماضي، ويُشيرُ إلى تلكَ الحركةِ الثَّقافيَّةِ والسِّياسيَّةِ والفَلسفيَّةِ الَّتي نشَأَتْ في الغَربِ (منذُ أوائلِ تسعينياتِ القرنِ الماضي)، ورَفَعَتْ لواءَ الدَّعوةِ إلى ضَرورةِ استخدامِ نُظُمِ التَّشـفيرِ القويِّ، وتقنيَّاتِ تَعزيزِ الخُصوصيَّةِ كأدواتٍ للتَّغييرِ الاجتماعيِّ والسِّـياسيِّ؛ ويَرى أصحابُ هذهِ الحركةِ أنَّ هذهِ التِّقنيّاتِ الرَّقميَّةَ يُمكنُها أنْ تكونَ فَعّالةً جدًّا في دعمِ الأفرادِ وحمايةِ حُرِّيّاتِهم وخُصوصيّاتِهم في العصرِ الرَّقميِّ المَعلوماتيِّ الرَّاهنِ والمُستقبليِّ، خاصَّةً في مُواجهةِ الرَّقابةِ الرَّسميَّةِ والمُراقبةِ الحُكوميَّةِ.

وكانَ يجري التَّواصُلُ الأساسُ لِـ(السّايفربانكس) عن طريقِ مجموعاتٍ غيرِ رسميَّةٍ في قائمةِ البَريدِ الإلكترونيِّ لـ"سايفربانكس"، لضَمانِ تَحقيقِ الخُصوصيَّةِ والأمانِ من خلالِ الاستخدامِ الاستباقيِّ للتَّشفيرِ.

ثانيًا: أسلوب عمل السايفربانك

يستندُ (السايفربانك) في عملِهِ إلى مجموعةٍ من البنى التحتيةِ الاتصاليةِ الخاصّةِ بالإنترنت، من كابلاتٍ ألياف بصريّةٍ تمتدُّ عبرَ قيعـانِ المحيطاتِ، وأقمارٍ صناعيّةٍ تحلّقُ بعيدًا في الفضاءِ، وحواسيبَ تنتشرُ في جهاتِ الأرضِ الأربعِ، مضافًا إلى برمجياتٍ حاسوبيةٍ وخوارزمياتٍ تشفيريّةٍ دقيقةٍ. والمشكلةُ، فيما يتعلّقُ بموضوعِ الإنترنت والنشرِ على مواقعِه، وحقِّ الإنسانِ في الحفاظِ على خصوصيتِه، ليستْ في توسُّعِ البُنى التحتيّةِ المتعلقةِ بثورةِ تقنيةِ المعلوماتِ والاستثمارِ فيها ــ فهٰذا أمرٌ مطلوبٌ ومفيدٌ ــ بل هي ــ كما يؤكّدُ (أسانج) ــ «تحويلُ شبكةِ الإنترنت من وسيلةٍ للتحـرّر، إلى أخطرِ أداةٍ ووسـيلةٍ باتجاهِ تحقيقِ الشـمولية، لتصبحَ هذه الشـبكةُ تهديدًا حقيقيًّا للحضارةِ الإنسانية». [2]

وهنا السؤالُ: ما العملُ حينَ تعملُ الدولةُ عملَ القراصنةِ أو قطّاعِ الطُرُقِ في استهدافِها لحرّيةِ

١ - انظر: جوليان أسانج وآخرون: السّايفربانك.. حرية الإنترنت ومستقبله، ص٨.
٢ - جوليان أسانج وآخرون: السّايفربانك.. حرية الإنترنت ومستقبله، ص٩.

تدفُّقِ المعلوماتِ والبياناتِ ومصادرةِ اتصالاتِ الناس، حينَ تقعُ (اتصالاتُهم) عبرَ الإنترنتِ تحتَ السيطرة، ومكالماتُهم الهاتفيّةُ تحتَ المراقبة؟!

في الإجابةِ عن ما تقـدّم، يأتي صاحبُ موقعِ (ويكيليكس) الذائـعِ الصيت، ومذيعُ الخفايا، وفاضحُ الخبايا والأسرار، (جوليان أسانج)، فيقرعُ أجراسَ الإنذارِ بأعلى الدّرجات، ويتشاركُ معه ثلاثةُ ناشـطينَ حقوقيّينَ (ألمانيّ وأمريكيّ وفرنسيّ) في مجالِ الاتصالاتِ والمعرفةِ الإلكترونيّةِ الرقميّة؛ حيـثُ يقدّمونَ الحلَّ في هذا الكتابِ عبرَ تجميعِ نقاشـاتٍ دارتْ عن الإنترنتِ وحرّيةِ التعبـيرِ، وطبيعةِ الحكومـة، وغيرها من الموضوعاتِ المثـيرةِ للجدل. والحلُّ هـو عبرَ عمليّةِ التشفير.

ثالثًا: عمليّة التشفير

تشـفيرُ المعلومات (Cryptography)، والتي هي عبارةٌ عـن تقنيةِ تحويلِ المعلوماتِ إلى رموزٍ غيرِ مقروءةٍ إلاّ لمن يملكُ المفتاح، هو أسـهلُ بكثيرٍ من عمليةِ كسرِ الشـيفرةِ لاسـترجاعِ المعلوماتِ الأصليّة؛ حيثُ يؤكّدُ (أسانج) على أنَّه يُمكنُنا استعمالُ هذه الخاصيّةِ الغريبة لوضعِ قوانينَ عالمِنا الجديد، ولتخليصِ عالمِنا المثاليّ من شبكاتِ الأقمارِ الصناعيّةِ وخطوطِ الألياف البصريةِ التي يرتكزُ عليها، ومن الأشـخاصِ الذينَ يسـيطرونَ على هذه الشـبكاتِ ويعترضونَ المعلوماتِ التي تشتملُ عليها، وذلك لتحصينِ فضائنا وراءَ حجابٍ مُشفَّر، ولإنشاءِ أراضٍ جديدة محظورةٍ تمامًا على الأشخاصِ الذينَ يسيطرونَ على الواقعِ الفيزيائيّ؛ أي أراضٍ لا يمكنُ لهٰؤلاءِ الأشخاصِ الوصولُ إليها مهما كانتْ مواردُهم وإمكانياتُهم.[1]

وفي سـياقِ شرحِه لعمليّةِ التشـفيرِ وفوائدِها، يُؤكّدُ (أسانج) على أنَّ «التشفيرَ هو في الواقعِ تجسيدٌ لقوانينِ الفيزياء؛ وهو لا يأبهُ بتهديدِ الدولِ ولا بخطرِ الرقابةِ الدوليّةِ الشديدة.

قد تكونُ هذه الفكرةُ غيرَ واضحةٍ لكثيرين، ولكن الحقيقةَ هي أنَّ الكونَ يُرحِّبُ فعلاً بالتشفيرِ ولا بدَّ منَ العملِ به. والتشـفيرُ هو المظهرُ الأساس لكلِّ إجراءٍ سلميٍّ مباشر؛ ففي الوقتِ الذي تسـتطيعُ فيه الدولُ فرضَ عنفٍ غيرِ متناهٍ على ملايينَ الأفرادِ باسـتعمالِ أسلحتِها النوويّة، نجدُ أنَّ التشـفيرَ يحمي أسرارَ الأفرادِ وأفكارَهم من عنفِ هذه الدولِ مهما بلغتْ شـدّةُ العنفِ الذي

١ - جوليان أسانج وآخرون: السّايفربانك.. حرية الإنترنت ومستقبله، ص١١.

قد تمُارسُــه ضدَّهُم. خاصّةً وأنَّ مصيرَ الحضارةِ الإنســانيّةِ مرتبطٌ بمصــيرِ الإنترنت، وذلك بعدَ الاندماجِ الكبيرِ الذي حدثَ بينَ الدولِ والإنترنت».[1]

رابعًا: محاولات اضطهاد

تبدأُ الحلقةُ النقاشــيّةُ في قضيّةِ (السايفربانك) ــ الّتي يدورُ حولَها مضمونُ الكتابِ ــ بفقرةٍ أولى تحتَ عنوان: «ملاحظةٌ حولَ مختلفِ المحاولاتِ لاضطهادِ (ويكيليكس) والشــخصيّاتِ المرتبطةِ به».

حيثُ يُشــيرُ المؤلِّــفُ إلى جملةِ الظروفِ والملابســاتِ الّتي أحاطتْ بقضيّــةِ ملاحقةِ موقعِ (ويكيليكس) بعدَ كشــفه لوثائقَ سريّةٍ من قبلِ الإداراتِ السياســيّةِ والأمنيّــةِ الغربيّةِ، خاصّةً في (الولايــاتِ المتّحدةِ الأمريكيّةِ)، فيُؤكّــدُ المؤلِّفُ على أنَّ مهمّةَ (ويكيليكــس) «تتمثّلُ في تلقّي المعلوماتِ من المُبلِّغينَ عن المخالفاتِ وإعلامِ العامّةِ بها، ومن ثمَّ الدّفاعِ ضدَّ الهجماتِ القانونيّةِ والسياســيّةِ المحتومة. أمّا محاولةُ الدّولِ والمنظّماتِ القويّةِ قمعَ منشوراتِ (ويكيليكس)، فهي مسألةٌ روتينيّةٌ، وبصفتِها ناشرةَ الملجأِ الأخيرِ فتلك إحدى الصعوباتِ الّتي أُسِّستْ (ويكيليكس) لتحمُّلِها». [2]

ويُبيّنُ المؤلِّفُ (أسانج) أنَّ الحكومةَ الأميركيّةَ أطلقتْ، مباشرةً بعدَ نشرِ موقعِ (ويكيليكس) لعــشراتِ آلافِ الوثائقِ السريّــة، تحقيقًا جنائيًّا أجْرَتْــهُ عدّةُ وكالاتٍ ضدَّ (جوليان أســانج) وموظّفي (ويكيليكس) وداعميه والمرتبطينَ المزعومينَ به، حتّى وصلَ الأمرُ ببعضِ أعضاءِ الكونغــرسِ الأميركيِّ «أنَّهُم وصفــوا صاحبَ الموقعِ ونــاشرَه (جوليان أســانج) بالإرهابيِّ المُثقّفِ تكنولوجيًّا، والعدوِّ المُحارب، وأنَّ منظّمتَهُ هي منظّمةٌ إرهابيّةٌ». [3] وأنَّهُ يجبُ اتخاذُ إجراءاتٍ قاسيةٍ بحقّه وبحقِّ منظّمته؛ ولهٰذا قامت الأجهزةُ الأميركيّةُ بملاحقةِ (أسانج) وبعضِ العاملينَ معه، وبدأتِ المضايقاتُ الأمنيّةُ والماليّةُ، وجرى تســطيرُ مذكّراتِ استدعاءٍ إداريّةٍ بحقِّ (أسانج) وأصدقائه.

---

١ - جوليان أسانج وآخرون: السّايفربانك.. حرية الإنترنت ومستقبله، ص١٢-١٣.
٢ - جوليان أسانج وآخرون: السّايفربانك.. حرية الإنترنت ومستقبله، ص١٦.
٣ - جوليان أسانج وآخرون: السّايفربانك.. حرية الإنترنت ومستقبله، ص١٧-١٨.

خامسًا: الاتصالات والتحريات

تحتَ عنوان «زيادةُ الاتصالاتِ مقابلَ زيادةِ التّحرياتِ»، يعودُ (أسانج) -أحدُ مؤلفي الكتاب- زمنيًّا إلى الوراءِ ليُشيرَ إلى أنّه معَ بدايةِ التسعينياتِ منَ القرنِ الماضي، بدأتْ أعمالُ التوسّعِ في إنشاءِ شبكةِ الإنترنتِ التي نظرَ الناسُ إليها بإيجابيةٍ كبيرة، مع إتاحتها الفرصةَ الواسعةَ والكبيرةَ أمامَهم لإجراءِ اتصالاتٍ مجانيةٍ لهم، «ولكنْ مع نشوءِ (السايفربانك) بوصفها حركةً مضادّةً لمنعِ الدولةِ منَ التشفيرِ، كانَ أعضاءُ هذه الحركةِ يعتقدونَ بأنّهُ معَ توسّعِ قدرةِ الناسِ على التواصُلِ والاتصالِ عبرَ شبكةِ الإنترنت، ستتوسّعُ قدرةُ الدولةِ على المراقبةِ والتحرّي والرّقابة».[١]

وتحتَ العنوانِ نفسه، يشرحُ لنا (آندي مولر- Andy Miller) -أحدُ مؤلفي الكتابِ الثلاثة- كيفَ أنّ الحكوماتِ عمومًا، وخاصّةً العربيةَ منها نموذجُ (السعودية) ، تنظرُ للإنترنتِ بوصفه مرضًا حقيقيًّا، وهي تريدُ معالجتَهُ بشكلٍ جذريٍّ لأنّهُ يُشكّلُ خطرًا عليها؛ باعتبارِ أنّها دولةٌ رافضةٌ للتغييرِ ولو بنسبةِ صفرٍ بالمائة، وأقلَّ منْ ذلكَ بكثيرٍ، معتبراً "أنّ استثمارَ تلكَ الحكوماتِ في مجالِ الإنترنتِ يأتي منْ بابِ خشيتها منْ تغييرِهِ لطريقةِ حُكمها».[٢]

ومنْ جانبِه، يُركّزُ (جوليان) -أحدُ مؤلفي الكتاب- على الإمكانيةِ الكبيرةِ التي فتحتْها أمامَ الناسِ ثورةُ الاتصالاتِ، رغمَ محاولاتِ الحكوماتِ مراقبتها والتحكمِ بها، «خاصّةً مع وجودِ اقتصادِ سوقٍ نيوليبراليٍّ ومتعددِ الأممِ ومتعولمٍ وحديثٍ؛ حيثُ إنّهُ في قمّةِ الإنجازاتِ التكنولوجيةِ، يمكنُ إنتاجُ اقتصادِ سوقٍ متعولمٍ وحديث».[٣]

ومنْ جانبِه، يرى (جوليان) أنّ «عسكرةَ الفضاءِ الإلكترونيّ تجري وتتحرّكُ حاليًّا بشكلٍ مشابهٍ للاحتلالِ العسكريّ؛ فمثلاً، عندما تقومُ أنتَ بالتواصُلِ عبرَ الإنترنت، أو باستخدامِ هاتفكَ المحمولِ -والذي أصبحَ في الغالبِ موصولاً بالشبكةِ- يجري اعتراضُ اتصالاتكَ بواسطةِ المنظماتِ المخابراتيةِ الحربية، وهذا بالضبطِ مثلَ وجودِ دبابةٍ في غرفةِ نومك».[٤]

إنَّ المطلوبَ هو توفيرُ الحمايةِ للاتصالاتِ والبياناتِ والمعلوماتِ ممنْ يريدُ سرقتها أو التلاعُبَ بها أو النَّيلَ منْ أصحابِها، سواءٌ أكانوا أجهزةً استخباراتيةً رسميةً أم أشخاصًا يقومونَ

١ - جوليان أسانج وآخرون: السّايفربانك.. حرية الإنترنت ومستقبله، ص٢١.
٢ - جوليان أسانج وآخرون: السّايفربانك.. حرية الإنترنت ومستقبله، ص٢٤.
٣ - جوليان أسانج وآخرون: السّايفربانك.. حرية الإنترنت ومستقبله، ص٢٥ وما بعدها.
٤ - جوليان أسانج وآخرون: السّايفربانك.. حرية الإنترنت ومستقبله، ص٢٩.

بالقرصنة أم غيرَهم.

وهنا يُبدي (آندي) -أحدُ مؤلفي الكتاب- أسفَهُ من أنّ أغراضَ (الولايات المتحدة) ورغبتَها في بقاءِ الأنظمة آمنةً، محدودةٌ تمامًا برغبتِها في بقاءِ الأنظمة قابلةً للاختراق حتى يستطيعوا السيطرةَ عليها؛ حيثُ إنّ حالةَ السيطرةِ على التشفيرِ على المستوى العالميّ، لا تسيرُ إلى مدى بعيدٍ بالقدرِ الذي دعتْ إليه (الولايات المتحدة) في الأصلِ في عامِ "١٩٩٨م"، عندما قامَ وكيلُ وزارةِ التجارةِ الأميركيـةِ للتجارةِ الدوليةِ (ديفيد آرونـز- David Arons) بالذهابِ في رحلةٍ حولَ العالمِ لإقناعِ الجميعِ بحصولِ الحكوماتِ على كلماتِ سرِّ التشفيرِ الخاصةِ بالجميعِ.

لكنَّ التشـفيرَ ما زالَ يُتناوَلُ حتى الآنَ باعتباره سـلاحًا تكنولوجيًّا ذا حدّين، ويجري تصديرهُ في صورةِ منتجاتٍ للمستخدمِ النهائيّ إلى العديدِ منَ الدولِ، ولكنْ تحتَ حدودٍ قانونيةٍ صارمةٍ؛ وهذا ما يُظهرُ عمقَ الازدواجيةِ في المقاييسِ. [١]

ويكشـفُ (جاكوب- Jacob) هنا ما كانتْ تقومُ به المؤسسـاتُ الأمنيـةُ الأميركيةُ منْ هيمنةٍ ومراقبةٍ واسـتيلاءٍ عـلى بياناتٍ ومعلوماتٍ واتصـالاتِ الناسِ؛ حيثُ تعترضُهـا أرضيًّا وفضائيًّا عن طريقِ الأقمارِ الصناعيةِ. وهذا ما كشـفَهُ (مـارك كلاين- Mark Klein) أحدُ كبارِ فنّيّي شركةِ الاتصالاتِ الضخمةِ (AT\&T)، الذي أوضحَ أنَّ (وكالةَ الأمنِ القوميّ الأميركيّ (NSA)(أجبرتِ الشركةَ السابقةَ على كشفِ الاتصالاتِ والمعلوماتِ والبياناتِ الخاصةِ بزبائنِها. [٢]

سادسًا: الرقابة على البشر

تحـتَ عنوان «مكافحةُ الرقابةِ التّامةِ بقوانينِ البشرِ»، يتبادلُ المؤلفونَ في نقاشـاتِهم أفكارًا عديدةً عن أنّ الرقابةَ الحكوميةَ المؤسسـيةَ ليستْ شـيئًا مرفوضًا ضمنَ دولةٍ ديمقراطيةٍ مستقلّةِ القضاءِ؛ أي إنّ هناك ضرورةً واستخداماتٍ شرعيةً للرّقابةِ التكتيكيةِ، أي المحققونَ الذينَ يُحقّقونَ معَ المجرمينَ وشـبكاتِ المجرمينَ، وهكذا قـدْ يحتاجونَ -تحتَ إشرافِ السـلطةِ القضائيةِ- إلى اسـتخدامِ مثلِ هذه الأجهزةِ، لكنَّ السـؤالَ هنا هو: أينَ يمكنُ أنْ يُرسَمَ الخطُّ الفاصلُ لهذا الإشرافِ القضائيّ؟ وأينَ يُرسَمُ الخطُّ الفاصلُ للتحكّمِ الذي يملكهُ المواطنونَ في استخدامِ هذه

١ - جوليان أسانج وآخرون: السّايفربانك.. حرية الإنترنت ومستقبله، ص٣١.

٢ -جوليان أسانج وآخرون: السّايفربانك.. حرية الإنترنت ومستقبله، ص٣٣.

التكنولوجيات والتقنيات الاتصالية والتواصلية الرقمية وغيرها؟[١]

وفي مجالٍ آخرَ، يتحدّثُ المؤلفونَ في حلقتهم النقاشيةِ عمّا أسموهُ بـ «تجسّسِ القطاعِ الخاصّ»، عن قيامِ شركاتٍ -ومواقعِ تواصُلٍ ومنصّاتٍ تفاعليةٍ ضخمةٍ خاصةٍ مثلَ (الفيسبوك) أو (جوجل) أو (أمازون) وغيرها- بأعمالِ التجسّسِ والمراقبةِ خدمةً لأجهزةِ الاستخباراتِ، بما يعني أنّ قضيةَ الخصوصيةِ لمْ تعدْ موجودةً، بل يجري انتهاكُها؛ رغمَ أنّ كلَّ تلكَ المنصّاتِ والشركاتِ تقولُ وتدّعي بأنّها تحتفظُ بسرّيةِ معلوماتِ زبائنها وبياناتهم الرّقمية.

ويعتبرُ (جاكوب) أنّ أصحابَ تلكَ المواقعِ والمنصّاتِ "قرّروا أنّهُ منَ الأهمِّ التعاونُ معَ الدولةِ وخيانةُ مستخدميهم وانتهاكُ خصوصياتِهم ليكونوا جزءًا منْ نظامِ التحكّمِ، وذلكَ لكي يُدفَعَ لهم مقابلَ كونهم جزءًا منْ ثقافةِ المراقبةِ، ولكونهم جزءًا منْ ثقافةِ التحكّمِ؛ فبدلاً منْ أنْ يكونوا مقاومينَ لها، أصبحوا جزءًا منها، إذًا فهم متواطئونَ ومسؤولونَ».[٢]

وهذا تحذيرٌ مهمٌّ يصدرُ عن مختصّينَ منْ تجسّسِ أهمِّ شركاتِ المعلوماتِ ومنصّاتِ التفاعلِ منْ خلالِ تجميعِ بياناتِ المستخدمينَ ومشاركتِها معَ الحكوماتِ وتسليمِها لها، والتحذيرُ يطالُ حتى الذكاءَ الاصطناعيَّ الذي باتَ أداةً لتحليلِ البياناتِ الشخصيةِ وتوقّعِ سلوكِ الأفرادِ.

سابعًا: مقاومة الرقابة

وفي محورِ "مقاومةُ الرّقابةِ التّامةِ بقوانينِ الفيزياءِ"، يشيرُ (جيريمي) -في سياقِ التأكيدِ على عمليةِ التشفيرِ- إلى أنّنا بحاجةٍ لإيجادِ برمجياتٍ مجانيةٍ، بحيثُ يتمكّنُ الجميعُ منْ فهمِها وتعديلِها وفحصِها للتأكّدِ ممّا تقومُ به؛ فالبرمجياتُ المجانيةُ هي أحدُ الأسسِ لخلقِ مجتمعٍ حرٍّ على الإنترنت، لكي يكونَ لديه تحكّمٌ على الآلةِ، وليسَ للآلةِ تحكّمٌ عليه. نحنُ بحاجةٍ إلى تشفيرٍ قويٍّ للتأكّدِ أنّهُ عندما تريدُ أنْ تقرأَ البياناتَ الخاصةَ بكَ لنْ يقرأَها أيُّ شخصٍ آخرَ. نحنُ أيضًا بحاجةٍ إلى أدواتِ اتصالٍ مثلَ (تور) (Tor) أو مثلَ (الكريبتوفون) (Cryptophone) للتمكّنِ منْ التواصلِ معَ الأشخاصِ الذينَ تريدُ التواصلَ معهم فقط.[٣]

---

١ - جوليان أسانج وآخرون: السّايفربانك.. حرية الإنترنت ومستقبله، ص٣٥ وما بعدها..
٢ - جوليان أسانج وآخرون: السّايفربانك.. حرية الإنترنت ومستقبله، ص٤٤.
٣ - جوليان أسانج وآخرون: السّايفربانك.. حرية الإنترنت ومستقبله، ص ٤٦ وما بعدها.

وعن الإنترنت والسياسة، يشيرُ المتحاورونَ في الحلقة النقاشية إلى أنّ الإنترنتَ ومنصاته المتعددةَ والمختلفةَ هي التي فتحت المجالَ الواسعَ لتعليم الناسِ وتدريبهم وإبراز قدراتهم على التعبير عن أفكارهم ورغباتهم، وكتابة نتاجاتهم على الصفحات التفاعلية، وإعادة نشرها وإرسالها؛ وبالتالي فهذا أمرٌ إيجابيٌّ جدًّا، لكن «استخدامُ هذه القدرة في التعبير على الملأ يجعلكَ -بشكلٍ ما- منمّقًا أكثرَ في كلامك معَ مرور الوقت وأكثرَ قدرةً على المشاركة في مناقشات أكثرَ تعقيدًا. وكلُّ هذه الظواهر التي نقومُ بمناقشتها تتمحورُ -في الحقيقة- حولَ هندسة هذه التعقيدات التي يجبُ علينا أنْ نفتّتَها إلى أجزاء صغيرة، بحيثُ يمكنُنا فهمُها والجدالُ حولَها بهدوء. والأمرُ لا يتعلّقُ بالطليعة السياسية، بل يتعلّقُ باختراق النظام السياسيِّ عبرَ هذه القدرة الجديدة على التعبير عن أنفسنا والمتوافرة بينَ أيدينا؛ القدرة على أنْ نتشاركَ الأفكارَ، وأنْ نشاركَ في المعرفة منْ دون أنْ نكونَ أعضاءَ في أحد الأحزاب السياسية، أو شركات الإعلام، أو أيٍّ منَ الهيئات المركزية الأخرى التي كنّا نحتاجُ إليها في الماضي لنتمكّنَ منَ التعبير عن أنفسنا».[1]

وعلى محور الإنترنت وعلم الاقتصاد وعلاقته بالسياسة، يؤكّدُ المتحاورونَ (أسانج-جيريمي-مولر جاكوب) على أنّهُ يجبُ ضمانُ توافر الحريات الأساسية؛ حرية الاتصال، وحرية الحركة، والحرية الاقتصادية أو حرية التفاعل الاقتصاديِّ.[2]

وفي محور الرقابة والمراقبة، يحذّرُ المتحاورونَ منْ تحوّل الإنترنت إلى أقوى أداة مراقبة في التاريخ، ولا بدَّ منْ أنظمة تشفير فعّالة تُحصّنُ وتحمي بيانات الناس على الشبكة العنكبوتية[3]؛ حيثُ يرى (السايفربانك) -مجموعةُ نشطاء التشفير- أنّ التقنيات التشفيريةَ هي السلاحُ الأساسيُّ للدفاع عن الخصوصية ومواجهة الرقابة، معَ التشديد على ضرورة تبنّي أدوات مثلَ (التور (Tor)-(، والاتصالات المشفّرة، والعملات الرقمية لحماية الحرية الفردية[4]، وهذا ما سيجعلُ العالمَ أفضلَ بعدَ الخلاصِ منَ المركزية والسلطوية.

١ - جوليان أسانج وآخرون: السّايفربانك.. حرية الإنترنت ومستقبله، ص٦٠ وما بعدها.
٢ - جوليان أسانج وآخرون: السّايفربانك.. حرية الإنترنت ومستقبله، ص٦٢ وما بعدها.
٣ - جوليان أسانج وآخرون: السّايفربانك.. حرية الإنترنت ومستقبله، ص١٠١ وما بعدها.
٤ - جوليان أسانج وآخرون: السّايفربانك.. حرية الإنترنت ومستقبله، ص٨٧ وما بعدها.

ثامنًا: الخصوصية

وفي المحورين الأخيرين: "خصوصيةٌ للضعيف، شفافيةٌ للقويِّ"، و"فئرانٌ في دار الأوبرا"، يتابعُ المتحاورونَ التحذيرَ الشديدَ منْ أنّ الدولَ والشركاتِ تسعى للسيطرةِ على الفضاءِ الرقميِّ، وهذا أمرٌ يهدّدُ سيادةَ الأفرادِ وحقّهم في الخصوصيةِ والتواصلِ الحرِّ؛ ولهذا يجبُ تبنّي خيارِ المقاومةِ التشفيريةِ التقنيةِ عبرَ: استخدامِ أدواتِ حمايةِ الخصوصيةِ؛ دعمِ الشفافيةِ ومكافحةِ احتكارِ المعلوماتِ؛ نشرِ الوعيِ بمخاطرِ المراقبةِ الجماعيةِ. وهذا ما يجبُ الالتزامُ به في ظلِّ ما نعتقدُه منْ أنّ المراقبةَ الشاملةَ ستستمرُّ مسلّطةً على أغلبنا وبصفةٍ مختلفةٍ، ممّا يساهمُ في نقلِ السلطةِ إلى المتحكّمينَ في النظامِ. لذلك -وهذا ما يشيرُ إليه (جوليان أسانج) في ختامِ الكتابِ- فالشعبُ الوحيدُ الذي سيكونُ قادرًا على الحفاظِ على الحريةِ التي سبقَ أنْ تمتّعْنا بها في السابقِ (فلنقلْ مثلاً قبلَ "٢٠" سنةً، وبسببِ قضاءِ مراقبةِ الدولةِ على الكثيرِ منها فنحنُ غيرُ قادرينَ على استيعابِ هذه المسألةِ) هم أولئك الذينَ يتلقّونَ نظامًا تعليميًّا عاليًا في خضمِّ هذه الأنظمةِ؛ ولهذا ستكونُ فقط النخبةُ المتمرّدةُ ذاتُ التكنولوجيا الفائقةِ هي الحرّةَ؛ إنّها تلك الجرذانُ الذكيّةُ التي تركضُ في دارِ الأوبرا[1].

الخاتمة

وفي نهايةِ مراجعتي وقراءتي لهذا الكتاب -وعلى الرغمِ من أنّ بعضَ النقّادِ يرونَ أنّ أفكارَه متطرّفةٌ، بينما يعتبرُه آخرونَ مرجعًا ضروريًّا في عصرِ الاختراقاتِ الرقميّةِ- لا بدَّ لنا منَ الإشارةِ والتنويهِ بأهميّته، وضرورةِ قراءته بتمعّنٍ؛ لأنّه ليسَ مجرّدَ تحليلٍ شخصيٍّ تقنيٍّ يتضمّنُ معلوماتٍ علميّةً عن شبكةِ الإنترنتِ وعمليةِ التشفيرِ الضروريةِ فيها، بل هو بيانٌ سياسيٌّ وثقافيٌّ اعتراضيٌّ يُحذّرُ منْ تحوّلِ الإنترنتِ إلى أداةٍ للهيمنةِ والقمعِ بيدِ الحكوماتِ والشركاتِ الخاصّةِ، وتظهرُ أهميّتُه أيضًا من خلالِ أنّه يدعو إلى تبنّي التشفيرِ وسيلةً للمقاومةِ والمواجهةِ ومنعِ تقييدِ حريةِ الناسِ في الوصولِ إلى المعلوماتِ بأصنافِها وأشكالِها كافّةً، خاصّةً تلكَ التي قد تكونُ مفيدةً لأعمالِهم.

١ - جوليان أسانج وآخرون: السّايفربانك.. حرية الإنترنت ومستقبله، ص١٠٢.